



الظاهر بيرس وحضارة مصر في عهد*

تأليف الأستاذ جمال الدين سرور

للأديب حسن حبشي

نُزِّي إلى أي مدى بلغ اهتمامنا بتاريخنا القومي...؟ خطر
بيالي هذا السؤال وأنا أنصفح هذا الكتاب الذي حاول فيه مؤلفه
الشاب أن يرسم صورة لمصر في تاريخ مصر له قيمته من
الناحية القومية والدينية. ومما يسترعي انتباه المتابعين
للدراستات المالية هو انصراف أكثر الباحثين إلى نواح خاصة
من التاريخ والأدب انصرفاً كلياً، على حين أن هناك نواحي
في كلا هذين الفرعين لا تزال بكرأ، ومن ثم كان اهتمام الأستاذ
جمال الدين سرور بتناول هذه الناحية أمراً يشكر عليه، فلقد
خصص من حياته الجامعية طبعين لدراسة عصر الظاهر بيبرس،
تفجج بهذا الكتاب القيم الذي منحه كلية الآداب من أجله
درجة «أستاذ في الآداب»

إن كلا من الظاهر بيبرس وعصره موضوع جديد يتطلب
من الباحث الرجوع إلى كثير من المخطوطات، ومرجع ذلك
قلة من يهتم بتناول تاريخ مصر بعد القرن التاسع الهجري
تقريباً، بل وقبل ذلك بكثير، حتى ليخيل إلى الكثيرين أن
مصر كانت تعيش طوال هذه الفترة على هامش الحوادث السياسية
في العالم الإسلامي، على حين يتراءى العكس لمن يتعمق بعض
الشيء في دراسة ظواهر هذا العصر... لقد كان العصر الطولوني
في مصر، فهل كان في تاريخ أمة من أمم الشرق حينئذ ما يبرزه
من الناحية الاجتماعية أو السياسية؟ لقد آثرنا هذا العصر بالغات

(*) طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ في ١٨٠ صفحة من الحجم الكبير

لدلالته على حيوية مصر في زمن كانت الدولة العباسية لا تزال فيه
على جانب شديد من البطش والقوة. وتوالت على مصر بمد ذلك
عهود لدول مختلفة كان موقف مصر في أثناءها كلها في صلتها
بالخلافة العباسية موقف النددلند، لا التابع للتبوع

ومن المصور الطريقة في تاريخ مصر عصر الأيوبيين ثم
المماليك، لا امتازت به هذه الفترة في الشرق والغرب بأنها كانت
عصر تلاحم ديني تمدى حدود الجدل إلى امتشاق الحسام فكانت
الحروب الصليبية التي ظلت زمناً طويلاً أهرق فيه من الدماء
ما يدعونا لتسميتها بالمجازر البشرية

وفي أوائل عهد الدولة المملوكية كانت الخلافة العباسية
مشرقة على الدمار، فلقد ظهر المغول في فارس، وتقدموا شطر
أطراف الدولة ينتقصون منها شيئاً فشيئاً فدمروا مملكة خوارزم
شاه وحلوا الدمار والمهالك، وكانوا يضررون من الشر للاسلام
ما تنبئ عنه محالفاتهم الكثيرة مع البابوات وملوك أوربا لخدم
الحنيفة السمحاء. وتم للمغول بعض ما أرادوه، فأزالوا الخلافة
من بغداد ثم تحولوا شطر مصر، وكانت - كما هي اليوم - معقل
الاسلام، فأخذت حملاتهم تنقض على أطرافها من جهة الشام،
ولكن قبض الله للاسلام إذ ذاك هذه الدولة الفتية المملوكية فوجد
رجالها في محاربة التتر ما يتفق وما نشأوا عليه من الفروسية.
والمعجب في أمر هذه الدولة الناشئة أنها استطاعت أن تصد
عادية قوم وطلأوا أرض أوربة وأشرفوا على سهول المجر، وقضوا
على الدولة الخوارزمية والخلافة في بغداد

وكان من رجال المماليك الظاهر بيبرس، فوجه جهوده بمد
أخذه مقاليد الحكم بمد قطز إلى صد التتر فهزمهم عند البيرة
كما هزمهم من قبل عند عين جالوت. والواقع أن ما بذله
بيبرس من صدم ونجاحه في هزيمتهم قد مكن لمية مصر
في العالم الغربي حيث كانت الدول المسيحية تتربق الفرصة
للاقتضاض على مصر التي اضطلمت بأعباء السياسة ومواجهة العالم
الغربي. كذلك خافه أمراء البيت الأيوبي لهزيمته. فوماً كان يظن